على طريق الأصالة

(٣٠)

أخطر قضايا العقدين الأول والثاني

من القرن الخامس عشر الهجري

أنور الجندي

أخطر قضايا العقدين الأول والثاني

حول أسئلة العلوم والمناهج :

من عطاء الله تبارك وتعالى لهذه الأمة القرآنية المسلمة فى مطلع هذا القرن الخامس عشر أن هداها إلى هذه الوجهة .

وجهة الخروج من دائرة المقاومة والدفاع ودحض المفتريات وكشف خطط التعريب والغزو الثقافى — بعد أن وصلت فى ذلك خلال القرن الرابع عشر إلى غاية واضحة بحيث يمكن القول بأن كل مثقف مسلم أصبح يعرف الآن مخطط هذه المؤامرة.

ويبقى أن نبحث عن الطريق للخروج من هذه الدائرة المغلقة والدخول إلى دائرة البناء والصياغة وإقامة القواعد الأساسية التى ينطلق منها المسلمون إلى امتلاك الإرادة فى الأصالة والعودة إلى المنابع .

وفى مجالات كبرى ثلاث يجب أن يقتحم الفكر الإسلامى طريقه لبناء القواعد :

الأول : أسلمة العلوم والمناهج والمصطلحات .

الثانى : تصحيح دوائر المعارف الإسلامية .

الثالث : تقديم الدور الإســـلامى فى مجال العلوم الطبيعية والاجتماعيـة .

وتلك فى تقديرنا أخطر قضايا العقدين الأول والثانى من القرن الخامس عشر الهجرى والتى يجب أن تحتشد لها الجهود وتقام المؤتمرات وتنشىء المؤسسات وقاعات البحث ومناداة العلماء والكتاب والباحثين من مختلف أنحاء الأمة الإسلامية للمشاركة فى هذا العمل وإعداده وجعله نبراساً نهتدى به على طريق الصحوة الإسلامية .

وإن كان من الضرورى أن نشير هنا إلى أن جولات قد بدأت فى هذا المجال وأن عدداً من الباحثين المسلمين قد تقدم بدراسات وأعمال فى مجال بناء منهج علم النفس الإسلامى وعلم الاجتماع الإسلامى وعلم الأخلاق الإسلامى بل وفى مجال علم الاقتصاد الاسلامى وتقديم منهج الأدب الاسلامى الذى توفرت له رابطة الأدب الاسلامى بقيادة شيخنا العلامة الندوى حفظه الله .

ولقد وجدت مجال القول واسعاً وضرورياً وله علينا حق تقديم البدائل الاسلامية فى مجال أسلمة العلوم الاجتماعية والانسانية أساسـاً .

• • •

إن المطالبة بإسلامية العلوم والمصطلحات والمناهج فريضة أساسية فى هذا العصر ، من خلال حركة تصحيح المفاهيم والمراجعة الشاملة للدخائل التى وفدت إلى الفكر الاسلامى خلال النفوذ الغربى والماركسى ، خصوصاً بعد أن تأكد أن المسلمين اليوم قد خرجوا أساساً من التبعية للمناهج الغربية وأنهم يتقدمون نحو منهج إسلامى أصيل .

القضية الأولى : أسلمة العلوم :

إن العنصر الخطير فى العلوم الانسانية هو عنصر الجبرية المطلقة للفرد فى إطار المجتمع ومحاولة الإقرار بعجز الإنسان على تغيير المجتمع وضرورة خضوعه له والقول بأن العامل الفعال المؤثر فى المجتمع هو البيئة وهو إلغاء كامل لدور الفرد الذى يجعل له الاسلام أهمية كبرى .

إن مفهوم الفلسفة المادية وإنكار الجانب الروحى والغيبى بما فيه الوعى إنكاراً تاماً قد فرض طابعه على هذه النظريات التى ادعى أصحابها أنها علم ، فهم يقولون إن القيم كلها للمجتمع وإن الدين خرج من الارض كما خرجت الجماعة نفسها فضلا عن فكرة التطور المطلق والاسلام لا يقر هذه النظريات ويرفضها رفضاً باتاً .

كذلك فإن من التحفظات الاسلامية على العلوم الانسانية :

خضوع العلم للسياسة وإن العلم فى الغرب ليس محايداً ولكنه منحاز فهناك مفهوم اجتماع غربى ومفهوم اجتماع ماركسى.

وكل منهما يخدم هـــذا النظام أو ذاك فيما يتصل بتثبيت سلطانه ونفوذه فى عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعة له.

إن ما يسمى بالانتربولوجيا (عــلم الإنسان) ليس فى الحقيقة علما خالصا فقد تكشف أن هذاالعلم ينطوى فى تطبيقه فى بلادالإسلام على مؤامرة خطيرة أهمها تعارض البحث الأنتربولوجى والأخلاق.

وأن طريقه فى البحث يقوم على الملاحظة الشخصية والانطباعات الذاتية، ومعنى هذا أن هذه العلوم لا تمتلك مقدرات العلم الصحيحة وإنما هى أيديولوجيات ذات هدف سياسى وهـــو تبرير الأنظمة الغربية.

يقول الدكتور زيدان عبد الباقى أن الأنتربولوجية نشأت بتشجيع ورعاية الاستقرار حتى يتمكن من قهر الشعوب المتخلفة وامتصاص ثرواتها تحت زعم العمل الرضى بها وأن وظيفة أنتربولوجى لا توجد إلا فى البلاد المستعمرة.

أخطار التصور الغربى للعلوم الإنصانية والاجتماعية :

(١) تجاهل وإنكار التوحيد الخالص والنبوة والوحى والغيب.

(٢) فهم الإنسان على أنه مادة وأنه خاضع لشهوتى البطن والجنس .

(٣) الهوى والظن (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) . فقام المنهج الغربى على فرضيات ونظريات معرضة للخطأ .

(٤) الفكرة المسبقة التى تحاصر عقول الباحثين الغربيين .

(٥) الفصل بين النظرية والتطبيق .

(٦) اعتماد المنهج التجريبى فى دراسة العلوم الإنسانية ,

وتختلف مفاهيم الإسلام عن مفهوم الفكر الغربى والفلسفات الغربية فى عناصر عديدة .

١ - إعتبار الأخلاق قيم متغيرة باختلاف المجتمعات والعصور بينما يرى الإسلام أن الأخلاق قيم ثابتة ,

٢ - إعتبار الدين ظاهرة نبتت من الأرض ولم تنزل من السماء على خلاف مفهوم الإسلام ,

٣ - التفسير المادى للتاريخ وتجاهل جميع العناصر الأخرى الروحية والمعنوية ,

٤ - الفصل بين الدين والسياسة وبين السياسة والأخلاق ,

٥ - نظرية الإنسان الغربى سيد الحضارة .

٦ - سيطرة الفلسفة المادية على جميع العلوم ،

إن حاجة المسلمين اليوم الحقيقية متجه إلى العلوم الرياضية والتجريبية وحدها وهذه العلوم حين تأخذها يجب أن يظهرها فى دائرة فكرنا الإسلامى ومفاهيمنا بحيث تكون مادة خاما نشكلها فى إطار مفهوم الإسلام للإنسان ومسئولية الفردية والتزامه الأخلاق.

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية فهذه ليست علوم فى الحقيقة ولكنها فروض ونظريات لا تدخل فى مجال المعرفة أو العلوم التجريبية من حيث قيامها أساساً على الفلسفة المادية وهى ليست عالمية أو إنسانية عامة ولكنها خاصة بأمها وشبابها لأنها تقوم على ردود أفعال معينه وهى لذلك لا تصلح لحل قضايا الإنسان فى عصر أو مكان آخر وإذا نقلت إلى بيئة أخرى أصابها الإضطراب .

وإننا لنتساءل ماذا فى العلوم الإنسانية الغربية يمكن أن نستبقيه أو نقتفع به ، هل هو مذهب التفسير المادى للتاريخ أم نظرية دارون أم مفهوم فرويد للجنس أو مفاهيم دوركايم فى اعتبار الجريمة فطرة أم نظريات الإستجابة للطعام والمعدة والجنس .

إن العلوم الإنسانية والاجتماعية تقوم أساساً على تصور أن الإنسان حيوان وتسلكه فى مسالك المادة وحدها وتتصور أن الإنسان الغربى سيد الحضارة كما تقوم على الفصل بين القيم ولا تقر تكامل القيم أو تلاقى العناصر .

القضية الثانية : تصحيح دوائر المعارف الإسلامية :

ذلك إن أخطر ما يواجه المثقفين المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم موسوعات ومراجع ودوائر معارف تقدم لهم الفكر الإسلامى من وجهة نظر غربية مسيحية يهودية ليبرالية أو ماركسية ولكنها على كل حال لا تمثل مفهوم الإسلام الحقيق.

يتمثل هذا فى عدد من دوائر المعارف التى نجدها بين أيدينا الآن فى كل المكتبات العامة ومكتبات الجامعات وكليات الآداب واللغة العربية، نجد هذه الموسوعات ميسرة قريبة التناول ولكنها مسمومة فى كثير من موادها لأنها تفتقر إلى المفهوم الصحيح الذى يتمثله الإسلام فى جوهره الحقيق.

هناك فى هذا المجال دائرة المعارف الإسلامية (وهى أخطر هذه المراجع جميعاً ، وقاموس المنجد ، والموسوعة العربية الميسرة ، والموسوعة الإسلامية الميسرة) وهناك كتباً بمثابة مراجع فى ميدانها خاصة : يقظة العرب وشمائل المصريين المحدثين وقد حشدت هذه الدوائر بمفاهيم تختلف عن مفهوم الإسلام فى عملية خلق الكون والإنسان اعتمدت مفاهيم سفر التكوين الذى كشف الدكتور بوكاى وغيره عن مخالفته لما كشف عنه العلم .

وفى سير الأنبياء اعتمدت مفاهيم الكتاب المقدس . وكان أخطر

ما هنالك أن أضيفت إلى مواد دائرة معارف إسلامية جميع الحركات الهدامة التى قامت أساسها ضد الإسلام ولا ريب أن سيطرة هذه البدع والفرق والنحل الدخيلة على الإسلام على مواد الموسوعة بإستفاضة مميزة يزلزل عقائد القراء المسلمين لأنه يخلق فى نفوسهم تصوراً مضللا بأن هذه البدع والفرق من صميم الإسلام وأنها حقائق مقررة.

وأن من يدرس الغاية التى وضعت لها هذه الدائرة يعرف مدى الخطر الكامن فيها فقد أجمع المستشرقون على أن يلموا شعثهم وحصاد هشيمهم الذى كتبوه فى عشرات الكتب خلال أزمنة متفاوتة ليكونوا منه هذا العمل الخطير الذى طرحوه فى السوق والذى ترجم مرتين إلى اللغة العربية .

ولا ريب أن هذه الدوائر تخدم أهدافا تغريبية واضحة أبرزها :

(١) الغض من شأن الإسلام وعقيدته وشريعته وتاريخه .

(٢) توجيه مادة الموسوعة لخدمة أهداف الصهيونية تاريخياً وديناً .

(٣) إدخال مواد لاهوتية ومسيحية ويهودية على النصوص الإسلامية والقرآنية .

(٤) انتقاص حركة التاريخ الإسلامى وتشويهها وإطفاء نوره وتفسير انتصاراته الباذخة تفسيراً مادياً يسلبها جوهرها .

(٥) تجريد المعارك الإسلامية من روح النصر الإسلامى القائم على مفهوم التضحية والفداء .

(٦) إفساد المواد الفقهية والتشريعية بتصويرها وكأنها مأخوذة من التشريعات القديمة والسابقة .

(٧) تجاهل مفاهيم الوحى والنبوة والعتب والبعث والجزاء .

ومن هنا كان خطر بقاء هذه الموسوعات التى ترجمت إلى اللغة العربية فى أيدى الشباب المسلم فضلا عن خطر وجودها فى أيدى الداخلين إلى الإسلام فى الغرب .

ولذلك فقد كان من الضرورى إتخاذ خطوة حاسمة فى سبيل تحرير دائرة المعارف الإسلامية - أولا وعلى الأقل - من هذه السموم والشبهات

وكانت جامعة البنجاب قد خطت خطوة فى هذا السبيل وبدأت فى تقديم بدائل أصيلة لهذه المواد المضطربة ، باللغة الاوردية ، ولعل الهيئات الإسلامية الكبرى تتضافر على ترجمة هذه المواد باللغة العربية وإعادة طبع دائرة المعارف الإسلامية من وجهة نظر إسلامية أصيلة.

القضية الثالثة : تقديم الدور الإسلامى فى مجال العلوم :

إن للمناهج التى تدرس فى مدارسنا وجامعاتنا مقدمات كان الفكر

الإسلامى هو الذى أقامها وأرساها فى مختلف مجالات الطب والاقتصاد والعلوم والفلك والاجتماع والنفس ثم جاءت العلوم الحديثة فأقيمت عليها ثم جئنا نحن فأخذنا هذه العلوم دون أن تربطها تحقيقاتها التى أقامها علماء المسلمين ولذلك فنحن نطالب بأن نقدم هذه العلوم بمدخل يقرر الدور الذى قام به الفكر الإسلامى فى أنشأتها . ومن العجيب أن يدرس أبنائنا فى الجامعات الحديثة هذه العلوم دون أن يعرفوا الأسس التى أقامها الإسلام وعلمائه لها .

ذلك أن الفكر الإسلامى قد قدم لهذه المناهج جميعها أوليات وإضافات بناءة حية قد اندثرت الآن وتجاهلها تاريخ العلوم والمناهج الذى يبدأ من المراحل الأخيرة بصرف النظر عن الدور الرائد التى قام به علماء الإسلام .

فالإسلام هو أول من فتح باب العلم التجريبى ونقل البشرية من العلوم النظرية اليونانية وأنه لم يقبل كل ماقدمت إليه نظريات الأغريق قضايا مسلمة بل إعادالنظر فيها وصحيح كثيراً من أخطاء أرسطو وجالينوس وغيرهما ورفض السحر والخرافة .

وقدم للبشرية لأول مرة فى تاريخها المنهج التجريبى القائم على الإعتبار والاختبار ، وكان الإسلام هو أول من أعلن قبول المعرفة السابقة ونسبتها إلى أهلها وشكرهم إليها وإثبات ذلك بمراجع دقيقة دون إنكار فضل أهل الفضل .

ولقد كان طبيعياً أن يستوعب الإسلام كل تراث البشرية السابق له من العلوم والمعرفة وأن يصححه ويقيمه ويصهره فى بوتقته ويضيف عليه إضافات بناءه .

وكان للعلماء المسلمين استمراراً من دعوة القرآن لهم (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) أن يقتحموا الآفاق وأن يقدموا كل ما يصلون إليه فى قالب علمى (قل هاتوا برهانكم) .

فكانت لهم الريادة فى علوم كثيرة لم تكن معروفة من قبل ، ليس فى العلوم التجريبية والرياضية والطبيعية فحسب بل فى مجـــال العلوم السياسية والاقتصادية والتاريخ وعلم النفس والفقه والقانون .

وكانت كتابات الماوردى وابن خلدون والبيرونى الإنسانية والاجتماعية بالإضافة إلى دورهم فى مجال التجريب ومازال نكتشف كل يوم قانوناً غريباً جديداً مستمداً من الفقه الإسلامى .

ومازال الأصول التى قدمها ابن خلدون هى أساس علوم العمران (أى الحضارة) والتاريخ والاقتصاد والسياسة .

وقد كان الماوردى أول من نادى بفكرة التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع والموازنة بين حقوق الأفراد وحقوق الجماعة من غير تضحية أحدهما لحساب الآخر ، كما تحدث عن الحافز الفردى .

وقدم البيرونى أهم نظرية اقتصادية عن الإدخار واكتناز الأموال وإنفاقها وعالج قصية كنز المال وعدم تركه للتداول وبين الخطر الذى يترتب على ذلك وقال إن الحركة من ضرورات الحياة فإذا وقفت هذه الحركة حدثت أزمة اقتصادية هائلة .

وسبق الغزالى ديكارت وغيره بنحو ستة قرون إلى القول بأن الشكوك هى الموصلة للحق (فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال)

وإن الغزالى سبق هربرت سبنسر أيضاً فى تصوير الدولة أو المدينة بجسم الإنسان وقد شبه الغزالى الملك بالقلب ، وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم والشرطة بعصب الإنسان والوزراء بحسن الإدراك والقضاة بالشعور .

وابن الهيثم هو الذى سبق بيكون فى الطريقة الإستقرائية وسما عليه وقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس وقدم الاستقراء على القياس وحدد الشرط الأساسى فى البحث العلمى وهو طلب الحقيقة دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة من عاطفة أياً كانت دخل فى الأمر :

يقول (ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال

العدل لا إتباع الهوى ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء .

ونذكر أن ابن القيم قد أضاف إلى الشريعة والفقه نظريات عرفتها الدوائر القانونية فى أوروبا وقدرتها من أمثال : حرية التعاقد ومنع الحيل فى الأحكام وإحياء أعمال الفضولى المحسن والمحافظة على أموال الغرماء .

ومايزال يذكر تاريخ العلم تلك الميزة الواضحة لمفهوم العلم فى الفكر الاسلامى وهو اتحاد العلم والدين فقد كان الاسلام هو الذى فتح للعلم أبواب العمل لاقتحام المجهول والسعى لاكتشاف ثمرات الأرض المخبوءة وفى نفس الوقت كان الاسلام هو الذى جعل الاسلام للناس جميعا . وجعل معطياته لكل الأمم ، وجعل معطيات العلم لإسعاد البشرية لا لإرهابها أو للفزع بين القوى العالمية .

ومن هنا فإن هذه المفاهيم كلها تتطلب أن يقدم مادة تكشف عن مقدمات الاسلام للعلوم التى تدرس اليوم وأن الاسلام قدم لهذه المناهج جميعا أوليات وإضافات بناءة حية وأن النظريات الفلسفية والعلمية والاجتماعية التى تقدم اليوم إنما هى وجهات نظر وليست قوانين مسلمة وأن وجهات نظر الغرب لا تزيد عن تجارب انطلقت من محيطه ومجتمعه .

وإن للإسلام وجهات نظر مستقلة ومتميزة فى مختلف هذه القضايا قد تختلف مع وجهة نظر الفكر الغربى .

قدم القرآن للإنسانية عديداً من المناهج العلمية الأساسية :

(١) المنهج التجريبى بديلا لمنهج القياس اليونانى .

(٢) منهج الغيب (للميتافيزيقا) .

(٣) منهج تحرير الانسان : من العبودية الوثنية وعبودية الانسان .

(٤) منهج بناء الأمم والحضارات وسنن الله تبارك وتعالى فيها

(٥) منهج التوحيد الخالص .

(٦) منهج المعرفة ذى الجناحين فى مواجهة الانشطارية .

هذا وبالله التوفيق ؟

رقم الإيداع ٤٥٠٩ / ١٩٨٩

مطبعة دار البيان ت ٣٩١٢٣١٠ - عابدين